1. **أُمة "إقرأ" التي لا تقرأ!**

د. وليد أحمد السيد
مدير ومؤسس مجموعة لونارد ودار معمار بلندن

الوطن العمانية - الأحد 13 مارس 2011

ثلاثة أخبار يقف المتأمل عندها طويلا في إطار هذا الموضوع: الأول – ما نشره موقع "ياهو مكتوب للأبحاث", أن استطلاعا أجرته كشف أن ربع سكان العالم العربي نادرا ما يقرأون كتبا بهدف المتعة الشخصية أو لا يقرأون أبدا! المعلومة الأخرى يكشفها المتأمل في موقع تصنيف الجامعات العالمية, وحيث يمكن تتبع تصنيف أية جامعة بالنسبة لترتيبها العالمي أو القارّي أو القطري أو المحلي, وكما هو متوقع فالنتيجة هي أن الجامعات العربية "تتذيل" و"بامتياز" قائمة التصنيف العالمي وبشكل مذهل! أما الخبر الآخير, ومسك الختام, فقد أورته الصحف البريطانية قبل أيام عن استقالة عميد أشهر كلية للإقتصاد في العالم وهي كلية "لندن سكول أوف إيكونوميكس" (lse) بسبب قبوله "لتبرع" من إبن زعيم عربي أثناء دراسته للدكتوراة بتلك الجامعة, حيث أثيرت شكوك, هي موضع التحقيق حاليا, في "شرعية" أطروحة الدكتوراة التي يعتقد أنه استعان بمحترفين لكتابتها, مما رمى بالتبرع في خانة "الرشوة"! كان هذا هو الموجز وفيما يلي التفصيل في هذا المقال وما يليه.

في إطار "الأمية الثقافية" التي تظلل معظم أجزاء العالم العربي الممتد شرقا وغربا, تتردد مقولة غربية في البوصلة التي تشير لمدى "ثقافة" شعب ما, وخصائصه الفكرية ونزعاته العقلية, وهذه المقولة هي: إذا أردت معرفة مدى ثقافة الشعب فانظر فيم يقضي أوقات فراغه, وكيف يقضيها!". تطبيقات هذه المقولة تتراوح بين شعوب "سارحة" تعاني من الملل الشديد والكآبة لوجود أوقات فراغ كبيرة لا تدري كيف تقضيها. فساعات الدوام اليومي, في المدرسة أو العمل, طويلة ومملة, وأيام العطل يفتتحها نوم طويل, فالبرنامج أيام العطل يبدو "حافلا" بنوم وتثاؤب وتمطي ثم المزيد من النوم والتمطي بحيث يبدو اليوم نفسه وكأنه "يتمطى" مع الأمة التي تعيشه. وقد تتخلل هذه الحالة من التثاؤب والتمطي القياسي نفحات من تزاور اجتماعي أو "بحلقة" في الفضائيات وبرامجها التي تضيف للتبلد الفكري ولا تسقي أرضا أو تنبت زرعا. أما على النقيض من هذه الصورة المترهلة لبعض الشعوب التي لا تعرف كيف تستغل وقتها في عمل مفيد, تجد هذه المقولة شعوبا تعرف للوقت قيمة "إضافية" بحيث تتقاطع مع أعمالها الروتينية والمتحركة نشاطات أخرى تزيد من ثقافة الفرد, وبالتالي المجتمع, بما يعطي وبعد عشرات السنين فروقات ثقافية هائلة وفلكية بين أمم تنسحق تحت وطأة مرور عقارب الدقائق والثواني الثقيلة وكأنها تنتظر أمرا "جللا" سيحدث في المستقبل المجهول, وبين أمم وشعوب تقدّر قيمة الثانية في حياة الفرد فراحت تسابق عقارب الوقت في الإزدياد من معين لا ينضب من القراءة والثقافة.

استثناءات فردية لا تكاد تذكر لكنها تترك وتركت أثرا يذكر. وقد حدثني ممرض قبل عقد ونصف أن العلامة المحدث الألباني رحمه الله كان يرقد على سرير المرض في مستشفى يعمل به هذا الممرض, وكان الكتاب جليس العلامة المحدث وأنيسه, لا يفارقه في ساعة من ليل أو نهار على سرير المرض, لدرجة أن الممرض كان يريد فحص ضغط العلامة فينقل الكتاب من يده اليمنى لليسرى أثناء عملية أخذ قراءة ضغط الدم. والدكتور أحمد نوفل, الأستاذ بكلية الشريعة بالجامعة الأردنية – يروى أنه قارئ لدرجة أنه كان يقرأ كتابا متوسط الحجم يوميا في فترة شبابه ودراسته في مصر. وفي إحدى محاضراته العامة قال ذات مرة أنه تصادف في إحدى الرحلات الجوية أن الطائرة توقفت في مطار إحدى الدول الأوروبية أثناء رحلة ترانزيت, وإذ بصوت مضيفة الطائرة تعلن أنه ولسبب طارئ ستتوقف الطائرة وقتا إضافيا قبل أن تقلع من جديد. فما كان من الركاب "العرب" أن ضجت أصواتهم وتعالت التعليقات الغاضبة لهذا الوقت الضائع والإنتظار غير المتوقع, وكأن الوقت الضائع لهؤلاء "القوم" سيضيع على البشرية وسيفوتها اختراع عبقري أو اكتشاف باهر سيغير وجه البسيطة! في نفس الوقت, وبعد سماع إعلان المضيفة ما كان من الركاب "الأجانب" إلا أن سحب كل منهم بهدوء كتابا يحمله في حقيبته الصغيرة وطفق يقرأ. وقد أخبرني صديق عماني كثير الترحال أنه يقرأ كثيرا في أسفاره. هذه "الظاهرة" عاينها كاتب هذه السطور بشكل ملفت للإنتباه في "قطار الأنفاق" بلندن منذ اللحظة الأولى للوصول لمطار هيثرو, حيث يرى المتأمل ركاب القطار وقد انهمك معظمهم في عمل مفيد, بخلاف ما تراه في حافلاتنا العامة في العالم العربي من مشاهد "البحلقة" فيمن أمامهم أو نفث "سحب" الدخان في وجوه من يحيط بهم من بشر – وكأنها إشارات "بالدخان" كالتي ينفثها الهنود الحمر, طبعا عدا عن النظرات الغاضبة المكفهرة دونما سبب محدد!

ومن المفارقة أيضا أن كاتب هذه السطور لاحظ أن القراءة لا تقتصر على "الوقت الضائع" في المواصلات, وقد أخبرني أحد الأصدقاء أنه ترجم كتابا كاملا أثناء تنقله في القطار بين كامبردج ولندن, لكن القراءة, وكما عاينت في الغرب يمكن أن تكون حتى في أماكن لا تخطر بالبال. فمع مطلع الألفية الثالثة نزلت ضيفا على رجل انجليزي وزوجته, وهما طبيب ومنسقة حدائق طاعنين في السن وصلا سن التقاعد لكن حيوية ومرح الشباب كانت لا تزال تجري في عروقهما الهرمة, وكان ذلك ضمن برنامج تبادل طلبة جامعة لندن لزيارة عائلات بريطانية للتعارف على عادات وتراث الشعوب. في بيتيهما الذي يقع أحدهما بمزرعة بضواحي لندن عمره أكثر من 400 عام, وآخر بشمال اسكتلندا يقع على تلة تشرف على بيئة "بكر" لم تكد تطأها قدم إنسان, كان أكثر ما أدهشني أن الكتب تتناثر بعفوية في كل أرجاء البيت, وحتى الحمام لم يسلم من كتب تم اختيارها بعناية هي عبارة عن كتب موسوعية بها معلومات عامة قصيرة تناسب وقت استعمال كل فراغ من فراغات البيت, ومنها الحمام! والطريف أنني حملت لهما معي من محطة القطار – وكعادتنا نحن المشرقيين - علبة حلوى صغيرة كهدية, رغم أنني اشتريت لنفسي كتابين من مكتبة بالمحطة. وكانت علبة الحلوى هذه مصدر قلق للزوجة كلما رأت زوجها الطبيب المسن يريد تناول حبة إضافية فوق حصته اليومية! وفي نهاية الزيارة سلمني الطبيب الإنجليزي المسن مغلفا ملفوفا بورق الهدايا بطريقة أنيقة, وفتحته لأجد به .....كتابا! موقعا بإهداء منهما كذكرى لتلك الزيارة.

في مقابل هذه الظاهرة "الشعبوية" الثقافية التي يتأسس عليها المجتمع الغربي, تشيع في العالم العربي ظواهر مرادفة "للأمية الثقافية" وتقتصر المطالعة على الكتب المدرسية للطلبة المجتهدين, ولا حاجة للسؤال عن الباقين وهم الأغلبية. ووفقا للإستطلاع, والذي تزامن مع اليوم العالمي للكتاب في 3 من الشهر الحالي, فقد تبين أن سكان الأردن ولبنان والجزائر هم الأقل قراءة, حيث تبين أن أكثر من 30 بالمائة من المشاركين بالإستبيان من هذه الدول نادرا ما يقرأون أو لا يقرأون أبدا – والمصيبة أن فئة الشباب هي الأقل قراءة ممن تقل أعمارهم عن 25 سنة. كما تبين أن 19 بالمائة من العينة التي شملتها الدراسة العشوائية تقرأ بانتظام, وأن 24 بالمائة من سكان البحرين ومصر والمغرب هم الأكثر رغبة بالقراءة, تليهم 22 بالمائة من سكان العراق والإمارات العربية. وفي مقابل عزوف فئات الشباب عن القراءة تبين أن المسنين ما بين أعمار 46 و 50 عاما هم الأكثر اعتيادا على القراءة بنسبة 27 بالمائة, تليهم نسبة 25 بالمائة للفئة العمرية بين 36 و 45 عاما.

أما عن موضوعات القراءة فهي مبحث مستقل بحد ذاته, وتكشف عن طبيعة عقلية الشعب ونزعاته الفكرية. فتحتل الروايات التاريخية الصدارة بنسبة 14 بالمائة في العالم العربي, تليها الكتب السياسية بنسبة 12 بالمائة. كما تميل النساء للقصص الرومانسية. وتختلف شعبية المؤلفات من بلد إلى آخر ، ففي البحرين وقطر تحظى القصص البوليسية بشعبية كبيرة ، بينما تتمتع كتب المغامرة بشعبية كبيرة في الجزائر ومصر. أما في المملكة العربية السعودية فتعتبر القصص الرومانسية هي النوع الأكثر شعبية. وهناك اختلافات واضحة في تفضيلات القراءة بين مختلف الفئات العمرية، فالأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و 17 يختارون روايات الرعب ـ التشويق والقصص البوليسية. فيما يلي ترتيب العشرة الأنواع الأكثر شعبية من المؤلفات: الروايات التاريخية 14( %)، الكتب السياسية (12%)، القصص الرومانسية (9 %)، الشعر (7 %)، القصص البوليسية (6 %)، كتب المغامرة (6 %)، روايات الرعب ـ التشويق (5 %)، الخيال العلمي (5 %)، السًّيَر الذاتية (4 %)، الألغاز (4 %).

وقد نال نجيب محفوظ، الكاتب الروائي المصري شعبية كبيرة بين القرّاء في العالم العربي. وقد نشر نجيب محفوظ ، الذي توفي في عام 2006 عن عمر يبلغ 94 عاماً، أكثر من 50 رواية، وأكثر من 350 قصة قصيرة. وحصل نجيب محفوظ، الذي فاز بجائزة نوبل للآداب في عام 1988، بنسبة 28 بالمئة من الأصوات حسب الاستطلاع، بينما جاء الكاتب المصري محمد حسنين هيكل في المركز الثاني، والكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي في المركز الثالث. وفيما يلي ترتيب الكُتَّاب العشرة الأكثر شعبية: نجيب محفوظ (مصري)، محمد حسنين هيكل (مصري)، أحلام مستغانمي (جزائرية)، الطيب صالح (سوداني)، إدوارد سعيد (فلسطيني أمريكي)، علاء الأسواني (مصري)، نوال سعداوي (مصري)، عبد الرحمن منيف (سعودي)، يوسف زيدان (مصري)، أمين معلوف (لبناني).

وبالرغم من أن الدراسة شملت 3503 شخصاً من الجزائر والبحرين ومصر والعراق والأردن والكويت ولبنان وليبيا والمغرب وعُمان وفلسطين وقطر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة واليمن, ولا تعد بحثا علميا أكاديميا, إلا أنها كعينة عشوائية يمكن أن تشير بدلالات من الواقع المشاهد. فالمثقف العربي يكاد يكون عملة نادرة ويؤكد هذه الحالة مختلف مناحي الإنتاج الفكري والأدبي, حيث ينخرط المعظم في خصوصيات عملهم وقلما تتجاوز اهتماماتهم الفكرية أو تتقاطع مع عموم مناحي الثقافة الأخرى. ومن ناحية أخرى فإن شح الإنتاج الفكري والبحث العلمي هو دليل آخر على نزعات وتوجهات الشعوب ترفدها "البوصلة" الفكرية واهتمامات الشباب والأفراد وانخراطهم في مشاغل معيشية يومية, يرى بعض المتعاطفين والمدافعين أنها أكبر من ترف التسلح الفكري. وفوق كل ذلك فتنوع الإهتمام الفكري والقراءة بمختلف صنوف المعرفة والثقافة تبدو مطلبا مستحيلا في مجتمعات موجهة فكريا وأيديولوجيا بما يضع متابعة الإنتاج الفكري العالمي في خانة "المحرّم" تجنبا للوقوع في المحظور, وهذا ينتج أفرادا غير قادرين على تمحيص الأفكار ومقارنة الغث من السمين, أفرادا نشأوا في محاضن الكتب المدرسية والمناهج المعلبة التي صقلت عقلياتهم حول نصوص ابتدائية لم يتجاوزوها طيلة حياتهم. وهذا ينتج "أنصاف مثقفين" و"أشباه مثقفين" تكونت معالم عقلياتهم الثقافية من أشلاء قصص بوليسية قرأها بعضهم في طفولته, وشذرات من حقائق علمية في غرف الصف المدرسية, وقصاصات من نصوص دينية سمعها في خطب الجمعة وقرأ بعضها في المقررات المدرسية, وأشباه قصص من هنا وهناك لتنتج فردا "متعالما" يجوب المجالس الإجتماعية بكلام لا يقدم ولا يؤخر, بل يزيد في حالة التخلف الفكري والثقافي التي يرزح تحتها العالم العربي, والتي باتت "تركة" اجتماعية يتوارثها الخلف من السلف, وباتت تتكرس أكثر فأكثر مع النزعة نحو تقليص مساحة الطباعة الورقة وتزايد مساحة العولمة الإلكترونية ومنتديات التواصل الإجتماعي التي باتت تلتهم ما تبقى من وقت واهتمام النخب من الشباب العربي.

في ظل هذه الحالة والظاهرة المجتمعية من اللاكتراث لبناء الثقافة الخاصة لدى الفرد العربي, وفي ظل غياب التشجيع المؤسسي وعدم انتشار المكتبات العامة التي تسهل للقارئ العربي الإشتراك واستعارة الكتب كما يشيع في الغرب, حيث يمكن للطفل منذ السنة الأولى استعارة الكتب التعليمية, وابني الصغير موسى الذي له بطاقة استعارة بالمكتبة العامة المجاورة منذ سنته الأولى مثالا, ليكبر معه حب الكتب وتصفحها واقتناءها, في غياب هذا التشجيع المؤسسي والحكومي, وبمقابل اللامبالاة الفردية, سنظل للأسف في ذيل القائمة, وستظل أمة "إقرأ" أمة اللاقراءة, واللاثقافة, وأمة "الأمية" الثقافية! وللحديث بقية

وليد أحمد السيد
لندن في 7 مارس 2011 1